بعضُ أسرارِ الحجّ
المؤتمرُ الاجتماعيُّ العامُّ

الشّيخ محمّد حسين كاشف الغطاء رحمه الله

مقتطفٌ مُختصرٌ من كتاب (الفردوس الأعلى) للشّيخ محمّد حسين كاشف الغطاء رحمه الله، اختارته «شعائر» في أجواء أشهر الحجّ، شرح فيه بعض أسرار الحجّ، مقسّماً إيّاها بين خاصّة تُكشف للسّالكين، وعامّة متاحة لكلّ متدبّرٍ متفكّر.

بما أنَّ الإنسان مُتكوِّنٌ من جوهرَين، جسم ورُوح، فقد جعل شارع الشّريعة الإسلاميّة لكلٍّ من الجوهرَين فرائضَ وتكاليف، ليس الغرض منها سوى سعادة الإنسان وتعاليه في معارجِ الكرامة ومدارجِ العظَمة، وأهمّ فرائض الرُّوح العقيدة والإيمان. وأهمّ فرائض البدن، أعمال خاصّة يُسمِّيها الشَّرعُ بالعبادات والفروع، أي فروع الدِّين، كما يُسمِّي تلك [فرائض الرُّوح] بأصول الدِّين.

وتلك العبادات خمسة: الصَّلاة والصَّوم، وهي بدنيّة مَحْضة [ومنها الجهاد أيضاً]، والخُمس والزَّكاة، وهي ماليّة مَحْضة، والحجّ يَتَضمنَّهما معاً، فهو عبادةٌ ماليّة وبدنيّة.

وقد جمعت كلّ واحدةٍ من هذه العبادات أسراراً وحِكَماً، إذا لم يكن الحجّ أكبرها مقاصد وأكثرها أسراراً وفوائد، فليس هو بأقلِّها، وقد أشارت الآيات إلى بعض تلك الأسرار والمزايا، وهي مادّيّة اقتصاديّة، وأخلاقيّة اجتماعيّة، ورموز عِلْويّة، ورياضات روحيّة.

نعم، النّاظرُ إلى أعمال الحجّ نظرة سطحيّة قد ينسبق إلى ذهنه أنّها ألاعيبُ من العبث؛ ولكن لا تلبث تلك النّظرة العابرة حتّى تعود عِبرةً وفكرة، تذهلُ عندها الألباب وتطيشُ في سُبُحات جلالها العقول.

أمّا الّذي فيه من الفوائد المادّيّة، والاجتماعيّة، والأخلاقيّة، فلعلَّ سطحه الأوّل ظاهر مكشوف، والتّوسُّع فيه يحتاج إلى مجالٍ أوسع ونظرٍ أعلى وأرفع، وهي الّتي أُشير إليها بقوله عزَّ شأنُه ﴿..لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ..﴾ الحجّ:٢٧، ولكن إذا لم يتّسع لنا المجال للإشارة إلى تشريح هذه المنافع أفلا يمكن التّلويح إلى بعض تلك النّفحات الّتي تهبُّ نسائمُها من الكنوز والرّموز الرّوحيّة الّتي تتضمنَّها أعمال الحجّ؟

النّاظر إلى أعمال الحجّ نظرة سطحيّة قد يتراءى له أنّها ألاعيب من العبث، ولكن لا تلبث تلك النّظرة العابرة حتّى تعود عِبرةً وفكرة، تذهل عندها الألباب وتطيش في سُبُحات جلالها العقول.

...مع الحاجّ في مناسكه

أوّلُها الإحرام؛ أرأيتَ المُحرم حين يتجرّد من ثيابه الّتي يتجمّل بها بين النّاس، فيَستبدل بها قطعتَين من القطن الأبيض، إشارة إلى قَطْعه جميع علائق هذه الحياة وزخارفها، واكتفائه بثوبَين، كمَن ينتقل من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى، لابساً أكفانه، منصرف النّفس عن كلّ شهواتها، وعازفاً عن كلّ لذّاتها.

أتراه حين يرفع صوتَه كلَّما علا جبلاً أو هبط وادياً أو نام أو استيقظ: **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ**، كأنَّه يُجيب داعياً، ويُخاطب منادياً؛ نعم يجيبُ داعي الضّمير، ويُخاطبُ الوجدان خطاباً يجيبُ به نداء ربِّه، وأذانَ أبيه إبراهيم، ودعوةَ نبيّه محمّدٍ صلّى الله عليه وآله. أتراه كيف يتجرَّد من الدُّنيا ويتخلّى عن الرّوح الحيوانيّة فيصير روحاً مجرَّداً، وملاكاً بشراً فيحرّم على نفسه التّمتّع حتّى من النّساء والطِّيب والطّيّبات.

أرأيتَه حين يَطوف حول الكعبة رمز الخلود، ومركز الأبديّة، وتمثال العرش الّذي تطوف حوله الملائكة ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ

حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ..﴾ الزمر:٧٥ طالباً أن تُفتحَ أبوابها فيدخل في فردوسها الأبهى، ويخلد في نعيمها الأبديّ، مع الخالدين.

أتراك حين تبتدئ بطوافك من الحجر فتلمسه قاصداً أنَّك تبايعُه وتأخذ العهد منه وتقبّله كأنَّك تقبّلُ يدَ الرّحمن، وإنَّه قد نزل أبيض من اللُّجين ولكنَّ ذنوب العباد كَسَته حلَّةَ السَّواد، كناية أنّه تحمَّل ذنوبهم وتعهَّد بغفرانها من خالقهم.

أرأيتَ كيف ينقلب الطَّائف حول الكعبة بعد الفراغ من طوافه إلى مقام إبراهيم فيصلّي فيه، إشارة إلى أنَّه بعد طوافه على القلب قام مقام أبيه إبراهيم في دعائه إلى الرَّبّ: ﴿.. رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ البقرة:١٢٧ ﴿..وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ البقرة:١٢٨.

أتراه حين يَنفلت بعد الفراغ من الطَّواف إلى السَّعي بين الصَّفا والمروة مُهرولاً يدفعه الشَّوق، حذار أن تعرضَه خطراتُ الوسواس فتكون حجرَ عثرةٍ في طريقه إلى مشاهدة الحقّ، وتُكدِّر عليه ذلك الصَّفا المتجلّي عليه من أشعّة تلك اللّمعات. والصّفا هو الصّخرة الّتي وقف عليها نبيُّ الرّحمة في أوَّل دعوته النّاسَ إلى التّوحيد، والدّخول في دين الإسلام، والتّخلّي عن عبادة الأصنام، وما بين الصَّفا والمروة هو الموقع الّذي سعت فيه هاجر أمّ إسماعيل سبع أشواطٍ في طلب الماء لولدها الّذي تركته في المسجد الحرام حول الكعبة، ولمّا أَيِسَت رَجعت لِولَدها، رجعت إليه فوَجدت ماء زمزم قد نبَع من تحت قدميه.

ثمّ بعد إكمال السّعي يقصِّر من شعره، ولعلّه إشارة إلى أنَّ السَّالك إلى الحقّ مهما جَدَّ في المسير، فإنَّ مصيره ومنهاه إلى القصور في شعوره، أو التّقصير. فإذا عَرف قصوره، واعترَف به، حلَّ من إحرامه، وأحلَّ اللهُ له الطّيّبات الّتي حرَّمها عليه، ورجع من الحقّ إلى الخلق، وهو أحد الأسفار الأربعة، وإلى هنا تنتهي عُمرَتُه.

ثمَّ يوم الثّامن يوم التّروية يعقد الإحرام ثانياً، وهو إحرام الحجّ، ويتوجَّه إلى مِنى وقبل ظهر يوم التّاسع يكون في عرفات من الظّهر إلى غروب الشّمس، ثمّ يفيض إلى المشعر، وقبل طلوع الشّمس يعود إلى منى، فيأتي بمناسكها الثّلاثة: الرّمي، والذّبح، والحلق يوم عيد الأضحى، وبعد الحلق يحلّ من كلّ ما حُرِّم عليه بالإحرام إلّا الطِّيب، والصَّيد، والنِّساء.

ثمّ يعود إلى مكّة، لإحرام الحجّ ويحلّ له بعده الصّيد، والطِّيب؛ ثمّ يعود إلى منى ويَبيت فيها ليالي النّفر؛ الحادية والثّانية عشرة ويرمي الجمرات في اليومين، أو الثّلاث بعد الأضحى ثمّ يطوف طواف النّساء فتحلّ له.

وهنا تنتهي أعمال الحجّ والمناسك بأجمعها وفي كلِّ واحدٍ من هذه الأعمال رموز وأسرار وحِكَم ومصالح، لو أردنا شرح بعضها فضلاً عن كلِّها، لاحتَجنا إلى مؤلَّفٍ مستقلٍّ لا نستطيع القيام به، وقد وهن العظم منّي واشتعل الرّأسُ شَيباً.

أسرار الحجّ: خاصّة وعامّة

ولكنّ ليعلم أنَّ الأسرار والمصالح الّتي في الحجّ، بل وفي كلِّ عبادة، نوعان: خاصّة وعامّة.

أمَّا **الخاصّة**، فهي الأسرار الّتي يتوصَّل إليها السّالكون، والعلماء الرّاسخون، والعرفاء الشّامخون، ولا تنكشف أستارُها وكنوزُها لعامّة النّاس، بل ولا يتصوَّرها بلمحِ الخيال أحدٌ منهم.

وأمَّا **العامّة**، فهي الواضحة المكشوفة الّتي يستطيع كلُّ متفكِّرٍ ومتدبِّرٍ أن يعرفها ويتوصَّل إليها. وأعظمها وأهمّها وأجلى المصالح والأهداف الّتي يرمي إليها ويتطلّبها على الظّاهر المكشوف والّتي يدركها كلّ ذي شعور هي النّاحية الاجتماعيّة، ومن المعلوم أنَّ الإسلام دينٌ اجتماعيٌّ وقد أعطى للنّواحي الاجتماعيّة أعظم الأهمّيّة؛ فشرّع صلاة الجماعة في مسجد المحلّة كلّ يوم ثلاث مرّات أو خمس، وصلاة الجمعة في المسجد كلّ أسبوع، وصلاة العيدَين لعموم أهل كلّ بلد وضواحيها كلّ سنة مرَّتين. ولم يكتفِ بذلك كلّه، حتّى دعى إلى مؤتمرٍ عامٍّ من المسلمين المتفرّقين في أقطار الأرض الشّاسعة في صعيدٍ واحدٍ، ليتعارفوا أوّلاً، فإذا تعارفوا تآلفوا، وإذا تآلفوا تكاتفوا، وصار كلُّ واحدٍ منهم قوّةً للآخر يتفقَّد شؤونه، ويشاركه في سرّائه وضرّائه، ونعيمه وشقائه، فتكون من ذلك للمسلمين قوّة هائلة، لا تقاومها كلّ قوّة في العالم.

والمسلمون يا للأسف، لو كان يُجدي الأسف، إنّهم لمّا فاتهم الحجى واللّبّ أصبحت أعمالهم بل وعباداتهم قِشراً بلا لبّ، يجتمعون وهم متفرّقون، ويتقاربون وهم متباعدون، متقاربة أجسامُهم متضاربة أحلامُهم، يحجُّون ولا يتعرَّف أحدُهم إلى أخيه ولا يرى إلّا صورته، ولا يعرف شيئاً من أحواله بل ولا اسمه، وبهذا ومثله وصلنا إلى الحال الّتي نحن فيها اليوم، فلا حول ولا قوّة، وبالله المستعان على هذا الزّمان وأهل الزّمان .

(مختصَر)

من أخطر مسوّغات المعصية
التّقصيرُ في معرفة المعصومين عليهم السلام

الشّيخ فوزي آل سيف

مقتطف من كتاب (الحياة الشّخصيّة عند أهل البيت عليهم السلام) للشّيخ فوزي آل سيف من علماء الحجاز، يتناول خطورة التّقصير في معرفة المعصومين عليهم السلام، وإنزالهم عن مراتبهم التي رتّبهم الله تعالى فيه، شارحاً أسبابه ومبيّناً أنّه أشدُّ خطراً من نقيضه -الغلوّ- وإن كانا يلتقيان في إخراج معتنقِيهما عن الصّراط القويم.

خطَّان يُمكنُ للباحث أن يَلحظهما في التَّعامل مع المعصومين عليهم السلام، بالرّغم من كَونهما على طرفَي نقيض، إلَّا أنَّهما ينتهيان إلى نتيجةٍ واحدة هي إخراجُ النّاس من محيط الاتِّباع والاقتداء. خطَّان يخرجان من الحدِّ الوَسَط والجادّة إلى حاشيتَي الطّريق، إفراطاً وتفريطاً.

هذان الخطّان هما: الغُلُوّ والتّقصير.

فالمُغالي لا يُغالي إلَّا وهو مصمِّمٌ على عدم الاتِّباع، فيرفع درجة الشّخص إلى مراتب لا يدَّعيها الشّخصُ لنفسه، فيُخرجه من حالته البشريّة إلى نموذج (إله – أو نصف إله)، وحينئذٍ لا يُطالب نفسَه بالاقتداء به، [متذرِّعاً بالعجز عن الاقتداء بإلهٍ أو ما يُشبهه].

وفي الطَّرف المقابل لخطِّ الغُلوّ والإفراط في الأنبياء والأوصياء كان هناك خطّ التّقصير والتّفريط، حيث إنَّ هذا الخطّ، ليس فقط لم يغالِ فيهم، بل بخسَهم حقوقهم، ونَسبَ إليهم أقوالاً أو أفعالاً لا تليق بالعاديِّين من مُحترَمي العلماء أو أصحاب العلم، بل أشراف القبائل. ولقد أفرط أصحابُ هذا الخطّ في التّركيز على بشريّتهم بحيث حصروا الجانب الغَيبيّ، وما يتّصل بالوَحي والرّسالة في زاويةٍ ضيِّقة جدّاً من حياتهم.

وسوف نتحدَّث عن العوامل الّتي ساعدت على انتشارِ أفكار هذا الخطّ، والّذي يبدو أنَّه لا يتَّصل فقط بتفسير حياة النّبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، بل يتعدَّى إلى تفسير حياة الأنبياء السّابقين عليهم السلام، فضلاً عن الأوصياء. وبالرّغم من أنَّ النّصوص التّالية -والّتي نعتقد بخَطئها وفسادِها- لا تليق بمقام الرّسالة والنّبوّة، إلَّا أنَّها لمّا كانت قد وَرَدت في كُتُب الحديث، بل و(الصّحاح)، فلا بدَّ من الإشارة إلى بعضها، لنرى كيف أنَّ هذا الاتِّجاه أيضاً وقع في التّطرُّف الّذي وقع فيه خطُّ الغُلاة، ولكنَّ من الجهة المقابلة.

ونرى كيف أنَّ هذا الخطّ لمّا كان قائماً على أساسٍ غير سليم، أدَّى به ذلك إلى أن يدَّعي هذه الأحاديث على الرّسول صلى الله عليه وآله والرُّسُل السّابقين.

وإليك بعض هذه الأحاديث:

* عن أبي هُرَيرة أنَّ النّبيّ صلى الله عليه وآله قال: «أللَّهمَّ إنَّما محمَّدٌ يَغضب كما يَغضب البشر، وإنِّي قد اتَّخذْتُ عندك عهداً لم تُخلفنِيه، فأيُّما عبدٍ آذيْتُه أوسبَبْتُه أو لعنْتُه أو جلَدْتُه، فاجعلْهَا كفَّارةً وقُربةً تُقرِّبُه إليك». (صحيح مسلم: ٨/ ٢٦، دار الفكر، بيروت؛ البخاري، التاريخ الكبير: ٤/ ١٠٩، المكتبة الإسلامية، ديار بكر)

* عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «سَمع النّبيّ صلى الله عليه وآله رجلاً يقرأ في المسجد فقال: رَحِمَه الله، أذكَرَني كذا وكذا آية أسقطتُها في سورة كذا وكذا». (صحيح البخاري: ٧/ ١٥٣، دار الفكر، بيروت ١٩٨١م؛ عنه البيهقي في السّنن: ٣/ ١٢، دار الفكر؛ وغيرهما)

* عن عائشة: «إنَّ أبا بكر دخل عليها والنّبيّ عندها يوم فطرٍ أو أضحى، وعندها مغنِّيتان تُغنِّيان بِما تقاذفت الأنصار يوم بغاث، فقال أبو بكر: مزمار الشّيطان؟! (مرّتين قالها) فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله: دعهما يا أبا بكر، إنَّ لكلِّ قومٍ عيداً وإنَّ عيدَنا هذا اليوم». (صحيح البخاري: ٤/ ٢٦٦، دار الفكر، بيروت ١٩٨١م)

ولو تتبَّعنا بقيّة الأحاديث لَطالَ بنا المقام، ونحن هنا لا نريد أنْ نناقش كلَّ حديثٍ بمفرده، سواء من ناحية سَنَده، أو من ناحية مخالفته لأحاديث أُخَرَ تنقلها هذه الصِّحاح في ما يَرتبط بسيرة الرّسول صلى الله عليه وآله.

إلّا إنّنا ومن النّظرة الأولى نستطيع أن نرى أنَّ هذه الأحاديث لا تليق في مؤدِّياتها بأيِّ مؤمنٍ عاديٍّ فضلاً عن سيِّد الخَلْق، وأفضل

الأنبياء، وأكمل المرسلين، و«أديب الله». فلو لم تَرِد هذه الأحاديث في (الصّحاح)، وأغفلنا الإسم المذكور فيها، ثمّ عرضناها على علماء المسلمين على أنّها وقائع حياة عالمٍ من العلماء، فإنّهم لا شكّ يتنفّرون منه، ويتقزّزون!!

ثمّ إنّنا في مسألة اللّعن لا نستطيع أن نقبل ذلك من شخصٍ عاديٍّ، لأنّ اللّعن من دون استحقاقٍ والسّبّ والشّتم هكذا عبثاً خلاف العدالة والأخلاق، فكيف نقبله من الرّسول وهو الّذي أُثِرَ عنه أنّه لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً، حتّى في مقابل اليهود الّذين كانوا يَشتمونه ويَدعون عليه بالموت، ولا في مقابل الكفّار في غزوة أُحُد، لأنّه لم يُبعَث لعّاناً وإنّما بُعِثَ رحمةً للعالمين، فكيف يقوم، والحال هذه، بِلَعنِ أشخاصٍ من المسلمين من دون استحقاقٍ؟!

وشخصٌ يَلعنُ عبثاً، ويَسبُّ، ويَجلدُ، ويَخضعُ لعواطفه ومشاعره في ما يرتبط بعقوبات النّاس من دون دليلٍ ولا جنايةٍ، كيف يؤتَمَن على كلام الله وعلى تطبيق أحكامه؟!

جواب هذا السُّؤال في الحديث الثّاني الّذي يرى أنّ الرسول ﷺ يَنسى، ويُسقِط آياتٍ من القرآن من السُّوَر!!

وقد تحوَّلت هذه المسائل في جهتَين: الأولى أنّها توسَّعَت لتشمل بقيّة الأنبياء عليهم السلام، والثّانية أنّها تبلوَرَت في صورة عقيدة، بعد أن كانت (أخباراً). قال ابن ابي الحديد ما خلاصته : «قال قومٌ من الخوارج «..» ومن الأشعريّة إنّه يجوز بعثةُ مَن كان كافراً..»!

وقال ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء): «فذَهَب طائفةٌ إلى أنّ رُسُلَ الله يعصون في جميع الكبائر والصّغائر حاشا الكذب في التّبليغ فقط «..» وأنّ كلّ ذنبٍ دَقّ أو جَلّ فإنّه جائزٌ على الرّسول حاشا الكذب في التّبليغ فقط، وقال [بعضهم]: جائزٌ عليهم أن يكفروا!! وقال: إذا نهى النّبيُّ عن شيءٍ ثمّ فَعَلَهُ، فليس دليلاً على أنّ ذلك النّهي قد نُسِخَ لأنّه قد فعله عاصياً لله تعالى!! وليس لأصحابه أن يُنكروا عليه، وجوّز أن يكون في أمّةٍ محمّدٍ مَن هو أفضل من محمّد ﷺ منذ بُعِث إلى أنْ مات»!! ونوجّه القارئ الكريم إلى أنّ هؤلاء القائلين: من «المسلمين»! لِكيلا يشتبه عليه الأمر.

ونحن هنا لا نريد أن نناقش المسألة عقيديّاً، لإبطالها، إنّما كنّا في صددِ بيانِ شيء مِن تعامل خطّ التّقصير مع الأنبياء عليهم السلام

> **يبقى الغلوّ محصوراً في فئةٍ قليلةٍ معزولةٍ يَسهلُ رصدُ فكرِها ومواجهتُه لأنّه يخالف مسلّمات المسلمين. أمّا التّقصير فيشكّل خطراً على صعيد الجمهور، وهو يُشبه الدّاء الدّفين الّذي يصعب رصدُه وهو يَفتكُ بجسد المجتمع.**

وسيِّدهم رسول الله ﷺ ثمّ يهون عليك معرفة نظرهم في الأوصياء والأئمّة عليهم السلام.

دوافع التّقصير

أ- **المعرفة النّاقصة**: المعرفة النّاقصة بشأن الرّسول أو المعصوم، تجعل هؤلاء المفرطين يغلّبون الجانب البشريّ الى الحدّ الّذي ينعدم فيه تأثير الجانب الرّساليّ (الوحي) في شخصيّة المعصوم.

إنّهم يتصوّرون أنّ النّبوّة أوالإمامة لباسٌ يلبسُه صاحبه في أوقات الدّوام ليُعرَف من أيّ صنفٍ هو، أو وظيفةٌ يؤدّيها كما يؤدّيها غيرُه لو كان هناك غيره، وأنّه لا ميزة له إطلاقاً و«أنّ الرّسول ما هو إلّا مجرّد وسيلة لا غاية، فضلُه من الوَحي، ومآثرُه من الرّسالة، وعظمتُه في الجهاد، وقدوتُه في الأخلاق مثل أيّ قائدٍ أو زعيمٍ؛ فاختيارُه للرّسالة ليس ميزةً لِشخصه، بل لأنّ الرّسالة لا بدّ أن تُبلَّغ من خلال رسولٍ تتوفّر فيه شروطُ الأداء والتّبليغ، والتّركيز على الاختيار والاصطفاء ليس من الوحي في شيءٍ، وهو أقرب إلى الاصطفاء اليهوديّ، والوحي يرمي إلى ما بعد الاختيار وهو التّبليغ، وليس إلى اختيار الشّخص ذاته»، كما يقول الدّكتور حسن حنفي في كتابه (من العقيدة إلى الثّورة).

يضيف حنفي معبّراً عن رأي هذا الخطّ في ما يرتبط بالرّسول: «وإنّ إثبات أنّ الرّسول خاتم الأنبياء والمُرسَلين لا يعني أيضا تركيزاً على فضائل شخص، أوعلى مزايا فرديّة لأحد، بل يعني أنّ النّبوّة قد انتهت، وأنّ الإنسانَ قد استقلّ».

هذه النّظريّة تتجاوز الكثير من حقائق التّاريخ وثوابت العقيدة،

ويَتجلّى فيها نقصُ المعرفة الّذي يؤدّي إلى تضخيم الجانب البشريّ، وإلغاء جانب الوحي والرّعاية الإلهيّة بالتّدريج.

إنَّ اختيارَ محمّدٍ ﷺ لأداء الرّسالة ميزةٌ مهمّةٌ لِشخصه، لأنَّه كان أفضل خَلقِ الله لأداء هذه الرّسالة وتبليغها، ولو كان في خَلْقِ الله من أوّل الخلق إلى قيام السّاعة أفضل منه، لكان هو الّذي يتحمّل مسؤوليّة تبليغ الرّسالة. وكونه خاتماً للنبيّين يعني، إضافةً إلى خَتمِه للنّبوّات والرّسالات، خَتمِه للفضائل.

إنّنا نجد أنفسَنا أمام منطقٍ متميّزٍ عندما يُخاطب اللهُ سبحانه وتعالى نبيَّه محمّداً ﷺ، فهذا النّبيّ الّذي أدّبه اللهُ حتّى بلغَ مبلغاً قال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم:٤ آنئذٍ أعطاه سِمَةً لم يتحدَّث عنها القرآن لِأحدٍ من النّبيّين حينما قال مخاطباً البشر -والمسلمين خصوصاً- ﴿..وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟..﴾ الحشر:٧، بل أدّب المسلمين بأدبٍ خاصٍّ مع الرّسول، إنّه أمَرَهُم بالصّلاة عليه، لأنَّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّون عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ الأحزاب:٥٦، ووَضَع مجموعة قوانين وآداب، تحدَّثت عنها سورة «الحُجُرات». وهذا لم يتمّ إلّا بعد أن تهيَّأ الرّسول ﷺ بعونِ الله إلى المقام الّذي أُريدَ له، فمنذ البدايات كان يتقلَّب في السّاجدين بنصّ القرآن الكريم.

لقد كان الأنبياء والأوصياء بَشَراً، وهذا صحيح، ولكن بشر «أعلى في الصّفات» بحيث يستطيعون أن يصبحوا «**مَحالّ معرفة الله، ومساكنَ بركةِ الله، ومعادنَ حكمةِ الله، وحَفَظَةَ سرِّ الله**». ميزتُهم لم تكن في الصّفات الجسميّة الخارجيّة، والتّركيبُ البدنيّ، وخطأُ مُعاصريهم -وربّما مَن جاء بعدَهم أيضاً- أنّهم أرادوا أن يكون هناك علامات فارقة تدلّ على نبوّة هؤلاء وإمامة أولئك: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ..﴾ الفرقان:٧، أرادوا ملَكاً يمشي على الأرض، بينما ميزتهم كانت في صفاتهم النّفسيّة، في علمهم، وحِلمهم، وقدرتهم القياديّة، في عمق إيمانهم بالله، وإخلاصهم لِدينه.

ب- العامل السّياسيّ: النّاظر بعمقٍ يلاحظ بوضوحٍ آثارَ العامل السّياسيّ في تشكيل هذه النّظرة ونشرها بين المسلمين. ذلك أنّ إظهار الأنبياء والمعصومين -والعياذ بالله- بمظهرِ المتساهلين والبشر الّذين ينساقون وراء عواطفهم وانفعالاتهم، يُسهِّل على الحكّام الّذين يريدون الاستمرار في طريق العبث، الإغراق في فِسقهم وشهواتهم.

ومن المعلوم أنَّ مرتكَزَ المسلمين قائمٌ على أنَّ المخالفات الدّينيّة وتَجاوز الأحكام والتّشريعات، لا تنسجم مع مقام الزّعامة الدّينيّة و«خلافة المسلمين»، ونظراً لِكَون هؤلاء الزّعماء قد مَرَدُوا على الانحراف، لذلك لا بدَّ من مخرج، وأفضلُ مخرجٍ ادّعاء تلك الأعمال -بنسبةٍ مّا- للرّسول ﷺ والتّأكيد عليها، ليُصبح القيام بها من قِبَل الخليفة والحاكم امراً معقولاً.

ج- أفكار الخارج: شجَّع المستشرقون هذا التّوجّه في كتابة السّيرة وفي عرضِ شخصيّة الرّسول ﷺ، سواء منهم المُنصفون أو المُغرِضون؛ أمّا المغرضون فالسّبب واضح، وأمّا المُنصفون فلأنّ التّركيبة الثّقافيّة الّتي ينطلقون منها، تركيبةٌ ماديّةٌ لا تستطيع أن تفهم كامل العوامل الغيبيّة، ولا تستطيع إدراك شخصيّة الرّسول بالتّالي.

والملاحظ أنّهم يتعاملون مع الرّسول ﷺ من خارج الدّائرة الّتي وَضَعه اللهُ تعالى فيها، لذلك فإنّ تحليلاتهم تُبنى على هذا الأساس، خصوصاً أنّهم ينطلقون من واقع تهميش الدِّين المسيحيّ في حياتهم، وإلغاء دور السّيّد المسيح عليه السلام.

وفي المحصّلة، يمكنُ القول: بقدر ما يشكِّل الغلوّ من خطرٍ حقيقيٍ -عموديّاً- على صفاء العقيدة وسلامتِها، فإنَّ التّقصير يشكِّل خطراً آخَر -أفقيّاً- على صعيد الجمهور والنّاس، بل ربّما قيل بأنَّ التّقصير، ولأنّه يتحرّك في مساحةٍ واسعةٍ عند النّاس (بينما يبقى الغلوّ محصوراً في فئةٍ قليلةٍ معزولةٍ يَسهلُ رصدُ فكرِها ومواجهتُه لأنّه يخالف مسلّمات المسلمين) فإنّه يُشبه الدّاء الدّفين الّذي يصعب رصدُه وهو يَفتكُ بالجسم. هذا إضافة إلى كونه قريباً من النّفس السّقيمة، ومُحبَّباً إليها، كونه يغذّي في الإنسان مشاعرَ الغرور، وأنّه يُشبهُ الرُّسل والأوصياء تماماً [فَهُم بشرٌ مثله]، وعندما يتنازل تحت ضغط نقاط ضعفه فيُذنب، يجد «العزاء» -في هذه النّظرة- أنَّ الرُّسل أيضاً خضعوا لنقاط ضَعفِهم!! وبالله المستعان.